

الدّرس الصوتي عند العرب القدامى كتاب سيبويه أنموذجًا

The voice lesson in the ancient Arabs

The Book of Sebawe's Model

د. سليم خيراني

¹ جامعة البليدة 02 - الجزائر، s.khairani@univ-blida2.dz

2025 / 04 / 15 تاريخ النشر	2025 / 01 / 13 تاريخ القبول	2024 / 08 / 05 تاريخ الارسال
Abstract		الملخص
The purpose of the research is to highlight the voice lesson of ancient Arabs and how they viewed it from different angles. As for the findings, they include the link between the sound study and the development of Arabic language studies, which began with the reading of the Holy Koran and its codification. The first notes in sound science were made orally by sahaba and his followers, and by scientists. Then the language collection and distillation movement expanded with the appearance, book Al-Ain for khalil Ben Ahmed Fahidi and the book Sibawe.		إن الهدف من البحث هو تسليط الضوء على الدرس الصوتي عند العرب القدامى وكيف كانوا ينظرون إليه من زوايا مختلفة. وأما عن النتائج المتوصل إليها، فمنها: ارتباط الدرس الصوتي بنشأة الدراسات اللغوية العربية، والتي بدأت بنزول القرآن الكريم، وتدوينه. صدور الملاحظات الأولى في علم الأصوات من الصحابة والتابعين، والعلماء القدامى بصورة شفهيّة. ثم اتسعت حركة جمع اللغة واستخلاص قواعدها بظهور الكتب الجامعة، مثل: كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، وكتاب سيبويه
Keywords : Voice lesson; sound science; ancient Arabs; Sibawe; book of Sibawe.		كلمات مفتاحية: الدرس الصوتي؛ علم الأصوات؛ العرب القدامى؛ سيبويه؛ كتاب سيبويه.

المؤلف المرسل: د. سليم خيراني، الإيميل: s.khairani@univ-blida2.dz

1. مقدمة:

يُعتبر الدرس الصوتي من العلوم التي اعتنى بها علماء العربية قديما، ففيه تجتمع عدة علوم، من نحو وصرف وعروض وبلاغة، ولعل سبب الاعتناء بهذا العلم، هو الحفاظ على القرآن الكريم من التحريف واللحن، خاصة بعد انتشار الإسلام ودخول الأعاجم فيه.

وقد ظهرت بؤادر الدرس الصوتي على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي في معجمه العين، والذي رتبّه على أساس صوتي، وسّمّاه "العين" لأنه أعمق المخارج الحلقية عنده، ثم أتى بعده تلميذه سيبويه الذي تحدث كثيرا عن القضايا الصوتية في كتابه، مثل: الإدغام، والجهر، والهمس، والإطباق، والقلب.

عندما نريد دراسة الدرس الصوتي عند العرب القدامى، نطرح بعض الأسئلة: ماذا نقصد بالدرس الصوتي؟ وهل عرف العرب القدامى الدرس الصوتي من غيرهم أم أنهم اكتشفوه بناء على مقدمات علمية؟ وهل كان علم الأصوات علما قائما بذاته أم مجرد إرغاصات ساهمت في ظهوره لاحقا على يد غير العرب؟ وهل ساهم سيبويه في التقعيد لعلم الأصوات أم أنه أضاف له ما توقف عنده العلماء السابقون مثل الخليل بن أحمد الفراهيدي؟

إن الهدف من هذا البحث هو تسليط الضوء على الدرس الصوتي عند العرب القدامى وكيف كانوا ينظرون إليه من زوايا مختلفة. وأما عن منهجية البحث، فقد اخترت المنهج الوصفي التحليلي؛ لأنني عمدت إلى وصف المصطلحات والمفاهيم الموظفة في البحث.

2. علم الأصوات (تعريفه، نشأته، وفروعه):

1.2 تعريف علم الأصوات:

أ - علم الأصوات لغة:

الصَّوْتُ لَعَةً هُوَ: الْجَرْسُ. وَيُقَالُ: صَاتَ يَصُوتُ صَوْتًا، فَهُوَ صَائِتٌ، مَعْنَاهُ صَائِحٌ. ابْنُ السَّكِينِ:
الصَّوْتُ صَوْتُ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ. وَالصَّائِتُ: الصَّائِحُ. وَفِي الْحَدِيثِ: كَانَ الْعَبَّاسُ رَجُلًا صَيِّتًا أَيَّ شَدِيدِ
الصَّوْتِ. وَأَصَاتَ الْقَوْسُ: جَعَلَهَا تُصَوِّتُ. وَالصَّيِّتُ: الدِّكْرُ؛ يُقَالُ: ذَهَبَ صَيِّتُهُ فِي النَّاسِ أَيَّ دِكْرِهِ.
وَالصَّيِّتُ وَالصَّائِتُ: الدِّكْرُ الْحَسَنُ.¹

ب - علم الأصوات اصطلاحاً:

لعلم الأصوات تعريفات كثيرة قديمة وحديثة، ولعل أقدمها هو ما قاله الجاحظ: " الصَّوْتُ هُوَ
آلَةُ اللَّفْظِ، وَالْجَوْهَرُ الَّذِي يَقُومُ بِهِ التَّقْطِيعُ، وَبِهِ يُوجَدُ التَّأْلِيفُ. وَلَنْ تَكُونَ حَرَكَاتُ اللِّسَانِ لَفْظًا وَلَا
كَلَامًا مُوزُونًا وَلَا مَنْثُورًا إِلَّا بِظَهْوَرِ الصَّوْتِ، وَلَا تَكُونَ الْحُرُوفُ كَلَامًا إِلَّا بِالتَّقْطِيعِ وَالتَّأْلِيفِ "².
وَأَمَّا عَنِ الْمُحَدِّثِينَ، فَقَدْ عَرَفَهُ رَمَضَانُ عَبْدُ التَّوَّابِ بِأَنَّهُ: " الْعِلْمُ الَّذِي يَدْرُسُ الْأَصْوَاتَ اللَّغَوِيَّةَ مِنْ
نَاحِيَةِ وَصْفِ مَخَارِجِهَا، وَكَيْفِيَّةِ حَدُوثِهَا، وَصِفَاتِهَا الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بِهَا صَوْتُ عَنِ صَوْتٍ، كَمَا
يَدْرُسُ الْقَوَانِينُ الَّتِي تَخْضَعُ لَهَا هَذِهِ الْأَصْوَاتُ فِي تَأْثَرِهَا بَعْضُهَا بِبَعْضٍ عِنْدَ تَرْكِيبِهَا فِي الْكَلِمَاتِ أَوْ
الْجُمْلِ "³.

2.2 نشأة علم الأصوات وفروعه:

أ - نشأة علم الأصوات:

لقد ارتبط علم الأصوات بنشأة الدراسات اللغوية العربية، والتي بدأت بنزول القرآن الكريم، وتدوينه،
ثم تلاوته، وتعليم قراءته، وقد صدرت الملاحظات اللغوية الأولى، حول علم الأصوات، من الصحابة،
والتابعين، والعلماء القدامى بصورة شفهيّة. ثم اتسعت حركة جمع اللغة واستخلاص قواعدها بظهور
الكتب الجامعة، مثل: كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، وكتاب سيبويه.⁴

وكانت بواكير الدرس الصوتي العربي قد جاءت مختلطة بالدراسات اللغوية والنحوية الأولى، فنجد في مقدمة معجم العين ملاحظات عن أصوات العربية، كما تضمّن كتاب سيبويه مباحث مهمة عن أصوات العربية خاصة في باب الإدغام وباب الوقف.⁵

لقد أصبح علم الأصوات علما مستقلا بذاته بداية من القرن الرابع الهجري، وفي هذا يقول ابن جني مخاطبا أحد الرجال: " أن أضع كتابا يشتمل على جميع أحكام حروف المعجم، وأحوال كل حرف منها، وكيف مواقعه في كلام العرب، وأن أتقصّى القول وأشبعه وأؤكدّه ... وأحرز فيه بتوفيق الله قَصَبَ السَّبْق ... وأذكر فَرْقَ ما بين الحرف والحركة، وأين محل الحركة من الحرف: هل هي قبله، أو معه، أو بعده ؟ وأذكر أيضا الحروف التي هي فروع مستحسنّة، والحروف التي هي فروع مستقبّحة، والحركات التي هي فروع متولدة عن الحركات، كتفرع الحروف عن الحرف. وأذكر أيضا ما كان من الحروف في حال سكونه له مخرج ما، فإذا حُرِّكَ أَقْلَقَتْهُ الحركة، وأزالتة عن محله في حال سكونه، وأذكر أيضا أحوال هذه الحروف في أشكالها، والغرض في وضع واضعها، وكيف ألفاظها ما دامت أصواتا مقطّعة، ثم كيف ألفاظها إذا صارت أسماء مُعَرِّبة ".⁶

لقد اكتمل علم الأصوات بصفة جليّة لدى علماء التجويد، الذين ألفوا كتباً مستقلة عن كتب القراءات وأطلقوا عليها اسم علم التجويد، وكان بدء ذلك في القرن الرابع الهجري على يد أبي مزاحم الخاقاني الذي نظم قصيدة في حسن أداء القرآن الكريم، قال عنها ابن الجزري: إنها أول مصنف في علم التجويد.⁷

ب - فروع علم الأصوات:

ينقسم علم الأصوات إلى ثلاثة فروع، وهي: علم الأصوات النُطْقِي، علم الأصوات الفيزيائي، وعلم الأصوات السمعِي:

أ - علم الأصوات النُطْقِي (الفسيولوجي):

وهو أقدم فروع علم الأصوات وأكثرها انتشارًا في البيئات اللغوية كلها. فهو يدرس نشاط المُتكلِّم بالنظر في أعضاء النطق، وما يعرض لها من حركات، فيُعَيِّن هذه الأعضاء، ويُحدد وظائفها ودور كل منها في عملية النطق، منتهايا بذلك إلى تحليل ميكانيكية إصدار الأصوات، من جانب المُتكلِّم.⁸

ويُعد علم الأصوات النطقي من العلوم سهلة الدراسة، التي لا تحتاج الكثير من العناء، فيمكن ملاحظتها بمساعدة آلات بسيطة، وقد كانت الدراسات الصوتية القديمة، مبنية على هذا الأساس. وقد أتاح التقدّم العلمي، في خطو علم الأصوات المنطقي، خطوات بعيدة المدى في دراسة أعضاء النطق وكيفية إنتاج الأصوات، فاستعان الدارسون بعلم التشريح، وعلم وظائف الأعضاء؛ للتعرف الدقيق على عملية النطق، والكشف عن أسرارها.⁹

ب - علم الأصوات الفيزيائي (أو الأكوستي) :

هو العلم الذي يهتم بدراسة الخصائص المادية أو الفيزيائية لأصوات الكلام أثناء انتقالها من المتكلم إلى السامع.¹⁰

إن وظيفة علم الأصوات الفيزيائي (أو الأكوستي) هو دراسة التركيب الطبيعي للأصوات، فهو يحلل الذبذبات والموجات الصوتية المنتشرة في الهواء، بصفتها ناتجة عن ذبذبات الهواء في الجهاز النطقي المصاحبة لحركة أعضاء هذا الجهاز، يعني وظيفته تقتصر على المرحلة الواقعة بين فم المتكلم وأذن السامع.¹¹

إن بعض القضايا المتعلقة بفيزياء الصوت تكشف لدارس أصوات اللغة أمورًا لا غنى له عنها، إذا أراد أن ينطلق من فهم صحيح لحقائق الصوت وهو يعالج أصوات اللغة. ومن تلك القضايا: معرفة الذبذبة، والموجة الصوتية وأنواعها، ودرجة الصوت، وعُلُوّه، وشِدَّتّه، وتنوُّعه.¹²

ج - علم الأصوات السمعي والإدراكي :

علم الأصوات السمعي، هو أحدث فروع علم الأصوات على الإطلاق، وله جانبان: جانب عضوي أو فسيولوجي، وجانب نفسي، أما الجانب العضوي: فوظيفته النظر في الذبذبات الصوتية، وهو يقع في مجال علم وظائف أعضاء السمع. أما الجانب الثاني: وهو النفسي، فيهتم بالبحث في تأثير

الذبذبات ووقعها على أعضاء السمع، وفي عملية إدراك السامع للأصوات وكيفية هذا الإدراك، وهذه مرحلة نفسية خالصة وميدانها الحقيقي هو علم النفس.¹³

إنّ دراسة علم الأصوات السمعي تحتاج إلى أجهزة وآلات ليست متاحة للغويّ العام، أو هو ليس بقادر على التعامل معها بطريقة تضمن له الدقة في عمله، لذا فالدراسة في علم الأصوات السمعي بجانبه، متأخرة عن مثيلاتها في الفرعين الآخرين: وهما علم الأصوات النطقي والفيزيائي.¹⁴

3. الدرس الصوتي عند سيبويه:

1.3 - ترجمة سيبويه والتعريف بكتابه:

أ - ترجمة سيبويه:¹⁵

سيبويه (148 - 180 هـ / 765 - 796 م): هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه: إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو. وسمي سيبويه لأن أمه كانت ترقصه وتقول له ذلك، ومعنى سيبويه رائحة التفاح.

المولد والنشأة:

تعود أصول سيبويه إلى البيضاء وهي مدينة مشهورة بفارس، وهي أكبر مدينة في إصطخر، وسميت البيضاء لأن لها قلعة بيضاء تبين من بُعد، لكن سيبويه نشأ في مدينة البصرة حيث هاجر أهله، وكانت الهجرة إلى الحواضر الإسلامية متواصلة في ذلك الزمان، وكانت مدن العراق الثلاث: البصرة والكوفة وبغداد أقرب المهاجر إلى أهل فارس. وكانت مدينة البصرة التي بُنيت في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقربهنّ، وقد شيدت قبل مدينة الكوفة بستة أشهر عام أربعة عشر هجرية.¹⁶

سيبويه وطلب العلم:

هاجر سيبويه مع أهله من بلاد فارس إلى البصرة، فكان يحيا في أرجائها يطلب العلم، وكان الحديث من أول ما يدرس العلماء فأعجبه ذلك، فصحب الفقهاء وأهل الحديث، وكان يستملي الحديث على حماد بن سلمة، ويروي حماد أنه جاء إليه سيبويه مع قوم يكتبون شيئاً من الحديث، قال حماد: فكان فيما أملت ذكر الصفا، فقلت صعد رسول الله عليه وسلم الصفا، وكان هو الذي يستمل، فقال صعد النبي صلى الله عليه وسلم الصفا، فقلت يا فارسي لا تقل الصفا لأنّ الصفا مقصور، فلما فرغ من مجلسه، كسر القلم وقال: لا أكتب شيئاً حتى أتقن العربية، فلزم الخليل، وفي رواية مجالس العلماء للزجاجي أنّه لزم مجلس الأخفش مع يعقوب والخليل وسائر النحويين.¹⁷

شيخ سيبويه وتلاميذه:¹⁸

من شيخ سيبويه: حماد بن سلمة بن دينار البصري، الأخفش الأكبر (عبد الحميد بن عبد المجيد)، يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي البصري القارئ، عيسى بن عمر الثقفي البصري، أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبي، الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري، أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري، أبو عمر بن العلاء، عبد الله بن زيد أبي إسحاق بن الحارث، محمد بن الحسن بن أبي سارة الرؤاسي.

ومن تلاميذ سيبويه: أبو الحسن الأخفش الأوسط، قطرب أبو محمد بن المستنير البصري، والناشي.

وفاة سيبويه:¹⁹

مات سيبويه في ريعان شبابه (32 سنة) حزناً وقهراً أثناء عودته من بغداد بعد فشله في مناظرته الشهيرة مع الكسائي (المسألة الزنبورية)، وهو متوجه إلى بلاد فارس، حيث إنّه لم يرغب بعودته إلى البصرة، فطلب تلميذه أبو الحسن الأخفش فبّته حزنه وهمه، وما أن وصل بلده حتى اشتد عليه

المرض وفارق الحياة، وهناك من قال إنّه مات في الأهواز، وقيل في شيراز، كما اختلفوا في تاريخ وفاته واجتمع الأغلبية على أنّه توفي سنة 188هـ رحمه الله.

ب - التعريف بكتاب سيبويه:

لقد جمع سيبويه في كتابه قواعد النحو والصرف، وبدأ تأليفه بعد وفاة الخليل، وقد حمله عنه تلميذه الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة، وأذاعه في الناس باسم "الكتاب"، بحيث كان يُقال في البصرة "قرأ فلان الكتاب" فيُعلم أنه كتاب سيبويه. وظلّ هذا الاسم خاصا به، دلالة على روعة تأليفه وإحكامه. وقد نوّه به كثير من النحاة، منهم: أبو عثمان المازني تلميذ الأخفش: الذي قال: "من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد كتاب سيبويه فَلْيَسْتَحْيِ". ويقول الجاحظ: أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك (الزيات وزير المعتصم) ففكرت في شيء أهديه إليه، فلم أجد أشرف من كتاب سيبويه، وقلْتُ له: "أردت أن أهدي لك شيئاً فلم أر أشرف من هذا الكتاب"، فردّ عليه قائلاً: "والله ما أهديت شيئاً أحب إليّ منه"، ويقول أبو الطيب اللغوي فيه وفي كتابه: "هو أعلم الناس بالنحو بعد الخليل، وألّف كتابه الذي سمّاه الناس قرآن النحو".²⁰

وأما منهج كتاب سيبويه، فهو يقع في أكثر من 920 صفحة، وقد جرى التقسيم فيه إلى أبواب، ويقع في جزأين، الأول في مباحث النحو، والثاني في مباحث الممنوع من الصرف، ومباحث النسب والإضافة ومباحث التصغير وبقية مباحث التصريف. ويحوي إلى مباحث الصرف والنحو مباحث العربية عامة، ففيه المجاز والمعاني وضرورات الشعر وإنشاده، وتعريب الكلمات الأعجمية، وفيه أيضاً قدر وافٍ من مباحث الأصوات العربية.²¹

2.3 - حروف العربية ومخارجها وصفاتها عند سيبويه:

أ - حروف العربية ومخارجها عند سيبويه

1 - عدد حروف العربية ومخارجها

إن عدد حروف العربية عند سيبويه 29 حرفاً، وفي هذا يقول: " فأصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفاً: الهمزة، والألف، والهاء، والعين، والحاء، والغين، والخاء، والكاف، والقاف، والضاد، والجيم، والشين، والياء، واللام، والراء، والنون، والطاء، والذال، والتاء، والصاد، والزاي، والسين، والطاء، والذال، والثاء، والفاء، والباء، والميم، والواو " .²²

ويتفرع من هذه الحروف - حسب سيبويه - حروف مستحسنة (عددها 06 أحرف)، وحروف غير مستحسنة (عددها 07 أحرف). فأما الحروف المستحسنة، فيقول فيها سيبويه: " وتكون خمسة وثلاثين حرفاً بحروفٍ هن فروغٌ، وأصلها من التسعة والعشرين، وهي كثيرةٌ يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار، وهي: النون الخفيفة، والهمزة التي بين بين، والألف التي تمال إمالةً شديدة، والشين التي كالجيم، والصاد التي تكون كالزاي، وألف التفخيم، يعني بلغة أهل الحجاز، في قولهم: الصلاة والزكاة والحياة " .²³

وأما الحروف الفرعية غير المستحسنة، فيقول فيها سيبويه: " وتكون اثنين وأربعين حرفاً بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من ترتضي عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر؛ وهي: الكاف التي بين الجيم والكاف، والجيم التي كالكاف، والجيم التي كالشين، والضاد الضعيفة، والصاد التي كالسين، والطاء التي كالتاء، والطاء التي كالثاء، والباء التي كالفاء. وهذه الحروف التي تمتتها اثنين وأربعين جيداً وريتها أصلها التسعة والعشرون، لا تتبين إلا بالمشافهة، إلا أن الضاد الضعيفة تتكلف من الجانب الأيمن، وإن شئت تكلفتها من الجانب الأيسر وهو أخف، لأنها من حافة اللسان مطبقة، لأنك جمعت في الضاد تكلف الإطباق مع إزالته عن موضعه " .²⁴

2 - مخارج الحروف العربية وصفاتها:

مخارج الحروف العربية عند سيبويه 16 مخرجاً²⁵، وتبدأ من الحلق وتنتهي بالشفيتين، وتوزع كالآتي:

- أقصى الحلق، وهو مُخْرَجُ الهمزة والهاء والألف.

- وسط الحلق، وهو مُخْرَجُ العين والحاء

- أدنى الحلق، وهو مُخْرَجُ الغين والخاء
- من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى، وهو مُخْرَجُ القاف.
- من أسفل من موضع القاف من اللسان قليلا ومما يليه من الحنك الأعلى، وهو مُخْرَجُ الكاف.
- من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى، وهو مُخْرَجُ الجيم والشين والياء.
- من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، وهو مُخْرَجُ الضاد.
- من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ما بينهما وبين ما يليها من الحنك الأعلى، وما فُوقَ الثنايا، وهو مُخْرَجُ النون.
- من مُخْرَجِ النون غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلا لانحرافه إلى اللام، وهو مُخْرَجُ الراء.
- مما بين طرف اللسان وأصول الثنايا، وهو مُخْرَجُ الطاء والذال والتاء.
- مما بين طرف اللسان وفُوقَ الثنايا، وهو مُخْرَجُ الزاي والسين والصاد.
- مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا، وهو مُخْرَجُ الظاء والذال والثاء.
- من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العُلَى، وهو مُخْرَجُ الفاء.
- مما بين الشفتين، وهو مُخْرَجُ الباء والميم والواو.
- من الخياشيم، وهو مُخْرَجُ النون الخفيفة.

ب - صفات أصوات حروف العربية عند سيبويه:

لقد خصَّ سيبويه كلَّ حرف بصفة خاصة به تميّزه عن غيره من الأصوات، بحيث ذكر اثنتي عشرة صفةً للأصوات، وهي: المجهورة والمهموسة، والشديدة والرخوة، وما بين الشديدة والرخوة، والمنحرف، وحروف الغنة، والمكرر، واللينة، والهاوي، والمطبقة، والمنفتحة²⁶، ووردت إشارة إلى صفاتٍ أخرى في مواضع متعدّدة من الكتاب، منها حروف الصغير، وحروف القلقلة، والحروف المستعلية، والاستطالة، والتفشي²⁷. والآن سنتطرق إلى بعض صفات الأصوات بالتفصيل:

1 - الجهر والهمس والشدة والرخاوة

أ - تعريف الجهر: الجهر لغةً هو رفع الصوت أو الإعلان. وهو الصوت الذي يتذبذب الوتران الصوتيان عند النطق به، ويحدث في الحنجرة حين يتضام الوتران الصوتيان، ويؤدي ضغط هواء الزفير إلى فتحهما ثم انطباقهما بسرعة كبيرة²⁸.

والجهر انحباس جري النفس عند النطق بالحرف لقوته، وذلك من قوة الاعتماد على مخرجه.²⁹ وفي هذا يقول سيبويه: " فالمجهورة حرفٌ أُشْبِعَ الاعتمادُ في موضعه، وَمَنَعَ النَّفْسُ أَنْ يَجْرِيَ مَعَهُ حَتَّى يَنْقُضِيَ الْعِمَادُ عَلَيْهِ وَيَجْرِيَ الصَّوْتُ. فهذه حال المجهورة في الحلق والفم، إلا أن النون والميم قد يعتمد لهما في الفم والخياشيم فتصير فيهما غنة. والدليل على ذلك أنك لو أمسكت بأنفك ثم تكلمت بهما لرأيتَ ذلك قد أُخْلَّ بهما³⁰. والأصوات المجهورة عند سيبويه هي: الهمزة، والألف، والعين، والغين، والقاف، والجيم، والياء، والضاد، واللام، والنون، والراء، والطاء، والذال، والزاي، والظاء، والذال، والباء، والميم، والواو. فذلك 19 حرفاً.³¹

ب - تعريف الهمس: الهمس لغةً هو إخفاء الصوت. وهو الصوت الذي لا يتذبذب الوتران عند نطقه³². واصطلاحاً: جريان النفس عند النطق بالحرف لضعفه، وذلك من ضعف الاعتماد على مخرجه. وحروف الهمس عشرة، جُمِعت في قول ابن الجزري: فحثه شخص سكت³³.

وفي هذا يقول سيبويه: " وأما المهموسُ فحرفٌ أضعف الاعتماد في موضعه حتى جري النفس معه. وأنت تعرف ذلك إذا اعتبرتَ فرددتَ الحرف مع جري النفس. ولو أردتَ ذلك في المجهورة لم تقدر عليه. فإذا أردتَ إجراء الحروف فأنت ترفعُ صوتك إن شئتَ بحروف اللين والمد. أو بما فيها منها، وإن شئتَ أخفيت³⁴. والأصوات المهموسة عند سيبويه: الهاء، والحاء، والخاء، والكاف، والشين، والسين، والتاء، والصاد، والثاء، والفاء. فذلك 10 أحرف.³⁵

ج - تعريف الشدة:

الشدة لغةً: القوة. واصطلاحاً: انحباس جري الصوت عند النطق بالحرف؛ لكمال قوة الاعتماد على المخرج. وحروف الشدة ثمانية يجمعها قول ابن الجزري "أجد قط بكت".³⁶

ويقول سيبويه في تعريف الشدة: "ومن الحروف "الشديد"، وهو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه. وهو الهمزة، والقاف، والكاف، والجيم، والطاء، والتاء، والذال، والباء. وذلك أنك لو قلت: ألحج، ثم مددت صوتك لم يَجْر ذلك".³⁷

د - تعريف الرخاوة:

الرخاوة لغةً: اللين. واصطلاحاً: جري الصوت عند النطق بالحرف؛ لضعف الاعتماد عليه في المخرج. وعدد حروف الرخاوة 16 حرفاً، وهي: الألف، والثاء، والحاء، والخاء، والذال، والزاي، والسين، والشين، والصاد، والضاد، والطاء، والغين، والفاء، والهاء، والواو، والياء.³⁸

والحروف الرخوة عند سيبويه هي: الهاء، والحاء، والغين، والخاء، والشين، والصاد، والضاد، والزاي، والسين، والطاء، والثاء، والذال، والفاء. وذلك إذا قلت: الطَّسْ وناقُضْ، وأشباه ذلك أجريت فيه الصوت إن شئت.³⁹

2 - الإطباق:

الإطباق لغةً: الإلصاق. واصطلاحاً: إطباق ما يحاذي اللسان من الحنك الأعلى عند النطق بحروفه. وحروف الإطباق أربعة: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء.⁴⁰

والإطباق هو ارتفاع مؤخر اللسان إلى أعلى قليلاً في اتجاه الطبق وتحركه إلى الخلف قليلاً في اتجاه الحائط الخلفي للحلق. وتصح هذه العملية في اللغة العربية نطق الصاد والضاد والطاء والظاء التي لها مقابلات غير مطبقة، وهي السين والذال والتاء والذال. وبعضهم يسمي ظاهرة الإطباق بظاهرة التحليق، وذلك لأن حركة اللسان التي تصاحبها مزدوجة إلى الأعلى قليلاً، وإلى الخلف قليلاً".⁴¹

ويقول سيبويه في الإطباق: " ولولا الإطباق لصارت الطاء دالا والصاد سينا والطاء ذالا ولخرجت الضاد من الكلام؛ لأنه ليس شيء من موضعها غيرها " .⁴²

3 - المكرر:

المُكرَّر لغةً: إعادة الشيء مرة أو أكثر. واصطلاحاً: ارتعاد رأس اللسان عند النطق بالحرف. وحرفه: واحد، وهو الراء. والفائدة من معرفة هذه الصفة: لتجنب خشية تكرار الراء، لا ليؤتى بها. وطريق الخلاص أن يلصق اللافظ به ظهر لسانه بأعلى حنكه لصقا محكما مرة واحدة.⁴³ ويقول سيبويه في المكرر: " ومنها المُكْرَرُ، وهو حرفٌ شديدٌ يجري فيه الصَّوْتُ لتكريره وانحرافه إلى اللّام، فتَجافى للصَّوْتِ كالرَّخوة، ولو لم يُكْرَرْ لم يَجِرِ الصَّوْتُ فيه، وهو الراء".⁴⁴

4 - القلب:

القلب لغةً: تحويل الشيء عن وجهته. يقال: قلب الشيء: أي حوّل عن وجهته. واصطلاحاً: وضع حرف مكان حرف آخر.⁴⁵

والقلب: هو تبادل الأصوات المتجاورة أماكنها في السلسلة الكلامية، ويكثر هذا في لغة الأطفال. وفي بعض الحالات يؤدي القلب إلى تتابع صوتي أكثر اتساقاً مع النماذج المسموح بها أو الشائعة في اللغة. مثل ما تقول العرب: يومٌ مَحْتُ وَحَمْتُ: شديد الحرّ. فنحن نفترض أن الأصل " مَحْتُ " ثم قَلِبَ إلى " حَمْتُ " لملاءمة النموذج الشائع".⁴⁶

لقد استخدم سيبويه مصطلح القلب للدلالة على المماثلة، ومن ذلك قلب السين صاداً إذا كانت مسبوقه بصوت مطبق مستعلٍ، مثل: صقت؛ يقول سيبويه: " كذلك أبدلوا من موضع السين أشبه الحروف بالقاف؛ ليكون العمل من وجهٍ واحد، وهي الصاد؛ لأن الصاد تصعد إلى الحنك الأعلى للإطباق، فشَبَّهوا هذا بإبدالهم الطاء في مصطبرٍ والذال في مزدجرٍ، ولم يبالوا ما بين السين والقاف من الحواجز؛ وذلك لأنها قلبتها على بُعد المخرجين، فكما لم يبالوا بُعد المخرجين، لم يبالوا ما بينهما من الحروف، إذا كانت تقوى عليها والمخرجان متفاوتان " .⁴⁷

5 - الإدغام:

الإدغام لغةً: إدخال الشيء في الشيء، تقول: أدغمت اللجام في فم الفرس، أي أدخلته فيه. واصطلاحًا: النطق بالحرفين حرفًا كالثاني مشددًا.⁴⁸

والإدغام: هو حين يتوالى صوتان متماثلان سواء في كلمة واحدة أو كلمتين، إذا كان الصوت الأول مشكلاً بالسكون، والثاني مُحركًا، وذلك لتحقيق حد أدنى من الجهد عن طريق تجنب الحركات النطقية التي يمكن الاستغناء عنها".⁴⁹

ويقول سيبويه في الإدغام: " وإنما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه، وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه، وما تبدله استثقالا كما تدغم، وما تخفيه وهو بزنة المتحرك ".⁵⁰

ويقول أيضا: " وإذا التقى الحرفان المثلان اللذان هما سواء متحركين، وقبل الأول حرف مدٍّ، فإن الإدغام حسنٌ، لأن حرف المد بمنزلة متحركٍ في الإدغام ".⁵¹

خاتمة:

إن الدرس الصوتي نشأ لأسباب دينية، هدفه الحفاظ على القرآن الكريم من التحريف واللحن، خاصة بعد انتشار الإسلام ودخول الأعاجم فيه. وقد اعتنى به علماء العربية قديما، بحيث ظهرت بوادر الدرس الصوتي على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي في معجمه العين، والذي رتبّه على أساس صوتي، وسماه "العين" لأنه أعمق المخارج الحلقية عنده، ثم أتى بعده تلميذه سيبويه الذي تحدث كثيراً عن القضايا الصوتية في كتابه "الكتاب".

ومن أهم النتائج المتوصل إليها، نجد:

- الصوت لغة هو الجرّس. وعلم الأصوات: هو العلم الذي يدرس الأصوات اللغوية من ناحية وصف مخارجها، وكيفية حدوثها، وصفاتها المختلفة التي يتميز بها صوت عن صوت، كما يدرس القوانين التي تخضع لها هذه الأصوات في تأثرها بعضها ببعض عند تركيبها في الكلمات أو الجمل.
- ارتباط الدرس الصوتي بنشأة الدراسات اللغوية العربية، والتي بدأت بنزول القرآن الكريم، وتدوينه.
- صدور الملاحظات الأولى في علم الأصوات من الصحابة والتابعين، والعلماء القدامى بصورة شفهيّة. ثم اتسعت حركة جمع اللغة واستخلاص قواعدها بظهور الكتب الجامعة، مثل: كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، وكتاب سيبويه.
- امتزاج الدرس الصوتي بالدراسات اللغوية والنحوية الأولى، فنجد في مقدمة معجم العين ملاحظات عن أصوات العربية، كما تضمّن كتاب سيبويه مباحث مهمة عن أصوات العربية خاصة في باب الإدغام وباب الوقف.
- استقلالية الدرس الصوتي عن بقية العلوم، بحيث أصبح علما مستقلا بذاته بداية من القرن الرابع الهجري.
- فروع علم الأصوات ثلاثة: علم الأصوات النطقي (الفسيولوجي)، علم الأصوات الفيزيائي (أو الأكوستي)، وعلم الأصوات السمعي والإدراكي.

- كتاب سيبويه: لقد جمع سيبويه في كتابه قواعد النحو والصرف، وأولى اهتماما بعلم الأصوات من حيث المخارج والصفات، وما يرتبط بهما من القضايا الصوتية، مثل: الإدغام، والجهر، والهمس، والإطباق، والقلب.
- عدد حروف العربية عند سيبويه 29 حرفا.
- مخارج حروف العربية عند سيبويه 16 مخرجا، تبدأ من الحلق وتنتهي بالشفيتين.
- صفات أصوات حروف العربية عند سيبويه 12 صفة، وهي: المجهورة والمهموسة، والشديدة والرخوة، وما بين الشديدة والرخوة، والمنحرف، وحروف الغنة، والمكرر، واللينة، والهاوي، والمطبقة، والمنفتحة.
- وأما التوصيات:
- إقامة ملتقيات دورية عن الدرس الصوتي وجهود سيبويه الصوتية كل سنة أو سنتين.
- تشجيع الباحثين والطلبة في كل المستويات التعليمية على دراسة القضايا الصوتية في رسائلهم وأطروحاتهم الجامعية.

الهوامش:

- ¹ : ابن منظور، لسان العرب، مادة " صوت " .
- ² : الجاحظ، البيان والتبيين، 1 / 79.
- ³ : عبد التواب، رمضان، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص 13.
- ⁴ : الحمد، غانم قدوري، المدخل إلى علم أصوات العربية، ص: 09.
- ⁵ : المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ⁶ : ابن جني، سر صناعة الإعراب، ص: 3 - 5.
- ⁷ : الحمد، غانم قدوري، المدخل إلى علم أصوات العربية، ص: 10.
- ⁸ : بشر، كمال، علم الأصوات، ص: 46 - 47.
- ⁹ : الحمد، غانم قدوري، المدخل إلى علم أصوات العربية، ص: 21.
- ¹⁰ : عمر، أحمد مختار، دراسة الصوت اللغوي، ص: 19.
- ¹¹ : بشر، كمال، علم الأصوات، ص: 49.
- ¹² : الحمد، غانم قدوري، المدخل إلى علم أصوات العربية، ص: 22.
- ¹³ : بشر، كمال، علم الأصوات، ص: 42 - 43.
- ¹⁴ : المرجع نفسه، ص: 44.
- ¹⁵ : الذهبي، شمس الدين، 8 / 352. الزركلي، خير الدين، الأعلام، 5 / 81. كتاب سيبويه، مقدمة الكتاب، ص: 03 وما بعدها.
- ¹⁶ : كتاب سيبويه، مقدمة الكتاب، ص: 07 وما بعدها. عوض، سامي، سيبويه ومؤلفه في النحو - الكتاب، ص: 12.
- ¹⁷ : كتاب سيبويه، مقدمة الكتاب، ص: 07 - 08.
- ¹⁸ : المرجع نفسه، ص: 8 - 16.
- ¹⁹ : سير أعلام النبلاء، 1982، 8 / 352. الطنطاوي، محمد، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص: 103. الأعلام، 5 / 81.
- ²⁰ : ضيف، شوقي، المدارس النحوية، ص: 59 وما بعدها.

- ²¹ : عكاوي، رحاب خضر، موسوعة عباقرة الإسلام في النحو واللغة والفقه، 3 / 27.
- ²² : الكتاب، 4 / 431.
- ²³ : الكتاب، 4 / 432.
- ²⁴ : الكتاب، 4 / 432.
- ²⁵ : الكتاب، 4 / 433 – 434.
- ²⁶ : الكتاب 4 / 434 – 436.
- ²⁷ : الكتاب 4 / 129، 174، 446، 448، 464.
- ²⁸ : الحمد، غانم قدوري، المدخل إلى علم أصوات العربية، ص: 101 – 102.
- ²⁹ : أبو الوفا، عليّ الله بن عليّ، ص: 189.
- ³⁰ : الكتاب، 4 / 434.
- ³¹ : الكتاب، 4 / 434.
- ³² : المدخل إلى علم أصوات العربية، ص: 101 – 102.
- ³³ : أبو الوفا، القول السديد في علم التجويد، ص: 188 – 189.
- ³⁴ : الكتاب، 4 / 434.
- ³⁵ : الكتاب، 4 / 434.
- ³⁶ : أبو الوفا، القول السديد في علم التجويد، ص: 191.
- ³⁷ : الكتاب، 4 / 434.
- ³⁸ : أبو الوفا، القول السديد في علم التجويد، ص: 191.
- ³⁹ : الكتاب، 4 / 434 – 435.
- ⁴⁰ : أبو الوفا، القول السديد في علم التجويد، ص: 194 – 195.
- ⁴¹ : عمر، أحمد مختار، دراسة الصوت اللغوي، ص: 125.
- ⁴² : الكتاب، 4 / 436.
- ⁴³ : أبو الوفا، القول السديد في علم التجويد، ص: 205.
- ⁴⁴ : الكتاب، 4 / 435.

- 45 : أبو الوفا، القول السديد في علم التجويد، ص: 69.
- 46 : عمر، أحمد مختار، دراسة الصوت اللغوي، ص: 390.
- 47 : الكتاب، 4 / 480.
- 48 : عبد السمیع، أحمد محمود، الإجابات الواضحات لسؤالات القراءات، ص: 174.
- 49 : عمر، أحمد مختار، دراسة الصوت اللغوي، ص: 387.
- 50 : الكتاب، 4 / 436.
- 51 : الكتاب، 4 / 437.

قائمة المصادر والمراجع:

- بشر، كمال، (2000)، علم الأصوات، د ط، دار غريب، القاهرة، مصر.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، (1998)، البيان والتبيين، تحقق: عبد السلام هارون، ط 07، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، (1993)، سر صناعة الإعراب، ط 02، دار القلم، دمشق، سوريا.
- الحمد، غانم قدوري، (2004)، المدخل إلى علم أصوات العربية، ط 01، دار عمار، الأردن.
- الذهبي، شمس الدين، (1982)، سير أعلام النبلاء، تحقق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، ط 02، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- الزركلي، خير الدين الأعلام، (2002)، ط 15، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
- سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، (1988)، كتاب سيبويه، تحقق: عبد السلام محمد هارون، ط 03، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.
- ضيف، شوقي، (1968)، المدارس النحوية، ط 07، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- الطنطاوي، محمد، (د ت)، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ط 02، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- عبد التواب، رمضان، (1997)، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ط 3، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.

- عبد السميع، أحمد محمود، (2002)، الإجابات الواضحات لسؤالات القراءات، ط 01، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- عكاوي، رحاب خضر، (1993)، موسوعة عباقرة الإسلام في النحو واللغة والفقه، ط 10، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان.
- عمر، أحمد مختار، (1997)، دراسة الصوت اللغوي، د ط، عالم الكتب، القاهرة، مصر.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، (د ت)، لسان العرب، د ط، دار صادر، بيروت، لبنان.
- أبو الوفا، عليّ الله بن عليّ، (2003)، القول السديد في علم التجويد، ط 01، مكتبة ابن كثير، الكويت / دار ابن حزم، بيروت، لبنان.

المجلات:

- عوض، سامي، (1982)، سيبويه ومؤلفه في النحو - الكتاب، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، سوريا، المجلد 05، العدد 01، مارس 1982، ص: 12.